هل تعيش تونس آخر أيام البطريق؟

نستعير من ماركيز لنكتب عن آخر أيام المنظومة الحاكمة في تونس، فعجزها عن إيجاد الحلول لمشاكل اجتماعية بسيطة يبث في أرواحنا بعض الأمل، عجزها وقصور رأيها سيأتي عليها أمام شارع يزداد وعيًا بحقوقه ويطور أساليبه النضالية دون عنف ولا إرهاب، فعناوين الانتفاض الاجتماعي تتعدد وتتشابه في المطالب والأساليب، وردود فعل الحكومة تتشابه في العجز والحيرة أمام بؤر الانتفاض.

سلمية الانتفاض نفسها تربك الحكومة فتحرمها استعمال عصاها في وجه الشارع، الشارع يسبق والحكومة تلاحق وتلهث وقريبًا نراها تسقط ونستعير من ماركيز صور الأيام الأخيرة للبطريق الذي لا يراسله أحد في عزلته.

حكومة سيدي بو

يختصر التونسيون اسم المنطقة السياحية سيدي بوسعيد في "سيدي بو"، وهو تصغير للتحبب لا للامتهان، "سيدي بو" هي إنسان عين مدينة تونس ونخبتها الحضرية وعنوان رفاهها وجمالها وعنوان الانتماء الحقيقي، إنها مركز عالم حضر تونس ومن لم يكن منها فليس منهم ولذلك فهي الأحق بحكم تونس ومنها تستمد شرعية الوجود والبقاء والسيطرة.

إنها شرعية "رايس الأبحار"، للتذكير فإن رايس الأبحار هو أبي سعيد الباجي الولي المتصوف الذي اختار الجبل البعيد ذات يوم ليعبد االله فاتخذه الناس مزارًا ونسبوا له هداية البحارة في البحر، ثم تسمت المنطقة باسمه وتسمى مواليدها باسمه فكل باجي هو نسخة من رايس الأبحار المهتدي باالله والهادي إلى سبيله في الأرض وفي السماء وإن كان تاجر خمور!

حكومة الشاهد وإن تزينت ببعض "الوجوه الأجنبية" فهي حكومة "سيدي بو"

وحكومة الشاهد وإن تزينت ببعض "الوجوه الأجنبية" فهي حكومة "سيدي بو"، ولذلك تعتقد أنها

باقية ومخلدة ولا أحد قادر على تغييرها الآن أو إسقاط شرعيتها المستمدة من رايس الأبحار، الثقة في البقاء والقوة تعمي الحكومة عن عجزها وفشلها في الاستجابة لأي مطلب من مطالب الثورة.

كل شيء مؤجل والحكومة تناور بالحلول الظرفية القصيرة الأمد (الترضيات على طريقة بن علي)، دون المساس بجذور المشاكل لتقديم حلول حاسمة ونهائية تدفع البلد في طريق التغيير الحقيقي الذي يوفر للحكومات شرعية بقاء بغير دعاء الصالحين بل بسند شعب عامل ومنتج.

البلد غني بالإمكانيات والحكومة بلا خيال ولا خطة، وكل ما تحسن فعله هو تدليل طبقة رجال الأعمال الفاسدين، كيف تتدبر لهم حيلاً لإعفائهم من ديونهم ودعمهم بمزيد من القروض والهبات، الحكومة والرئيس يعرفان أن هذه الطبقة هي سبب وجودهم وبقائهم الفعلي وإن باعا للشعب خرافة الحكومة التي يحميها أولياء االله الصالحين.

أولياء المال الفالحون في النهب والاستيلاء هم الحماة الحقيقيون للحكومة ولكن إلى متى، فالحماة لا يساعدون الحكومة بالاستثمار حيث تريد لكي يستقر لها الوضع، هؤلاء كروش كبيرة تأكل ولا تتبرز.

قناعة تترسخ الآن أن منظومة الحكم التي تفكر مثلما فكر بن علي ونظامه مشرفة على نهايتها وليس المهم الأشخاص أو الوجوه، بل إن الخطة المؤسسة لهذا النظام استنفدت قدرتها على البقاء ومنوالها التنموي انتهت صلاحيته والبلد يطلب تغييرًا حقيقيًا في العمق.

إعادة بناء منوال تنمية مختلف يعتمد على الاستقلال الذاتي للمنتجين لا على المناولة الصناعية والسياحية، كل الخبراء يقولون بأن البلد ليس فقيرًا ولكن الخطة التنموية المتبعة لا تعتمد على الاستثمار في ثرواته الطبيعية والبشرية.

شعب سيدي بو

للرد على غرور "سيدي البو" الحاكمة تمجد سيدي بو أخرى هي اختصار سيدي بوزيد، فهناك لدى الشعب سيدي بو الثائرة التي ترمز الآن إلى كل انتفاض شعبي ضد حكومة، سيدي بو المعادلة الآن وإن أنكرت الحكومة وحواريها من الإعلاميين والمتزلفة هي بين "حكومة سيدي بو" و"شعب سيدي بو".

لم يعد نصب الخيام في القصبة بعد، وقد لا تنصب، فكل شارع الآن هو القصبة وتطاوين تصنع قصبتها تحت شعار "الرّخ لا" ومعناها لا تراجع ولا تهاون ولا استسلام

الوضع قريب جدًا بل يوشك أن يطابق أيام القصبة الأولى في الثورة، حكومة محمد الغنوشي المنهزمة وشعب القصبة الثائر، لم يعد نصب الخيام في القصبة بعد وقد لا تنصب، فكل شارع الآن هو القصبة وتطاوين تصنع قصبتها تحت شعار "الرّخ لا" ومعناها لا تراجع ولا تهاون ولا استسلام، لقد عرّبت شعارها فلم تعد تتحدث بالفرنسية الحضرية وتقول "ديقاج"، لأنها ليست ضد الحكومة بل ضد خطة الحكومة القاصرة، فهي ليست حركة ثورية بل حركة احتجاج ضمن الدولة وضمن القبول المبدئي بنتائج الصندوق ولكن بمعادلة أخرى، تستثمر في الإمكانيات المتاحة لتعدل بين الناس وتنزل من هضبة سيدي بو إلى شعب سيدي بو.

نخبة سيدي محرز

في الأسطورة المؤسسة لمدينة تونس أن "سيدي بن عروس" غضب يومًا على سكان الحاضرة (تونس) لفرط فسادهم وفحش لفظهم، فرفع بيديه المدينة كلها ليقلبها في البحر، فتصدى له سيدي محرز بن خلف، فأعاد المدينة إلى موضعها وإن بقيت منحدرة إلى البحر كأنها توشك أن تنهار فيه، ولذلك يقول التوانسة "يحرز لك محرز يا تونس" (فهو الذي حماها من الغرق).

ويبدو أن نخبة تونس الحالية لا تزال تعتمد على سيدي محرز ليحمي المدينة من الغرق في بحر الفشل

الحكومي، تطوف النخبة حول الحكومة راجية فضلها ومنتها، والحكومة تمن على الكثيرين بمناصب لا عمل لكن برواتب مجزية، والجميع يتقاطر داخل حزب السلطة معربًا عن ولائه لابن الرئيس المساند الرسمي للحكومة وينتظر حصته.

كل اللعبة السياسية الآن تدور حول هذا "ادخل في حزب النداء وانتظر حصتك"

كل اللعبة السياسية الآن تدور حول هذا "ادخل في حزب النداء وانتظر حصتك"، ابن الرئيس يعد ويفي أحيانًا، فبعض أصوات الإعلاميين خرست إلى الأبد وبحثنا عنها فوجدناهم ملحقين بالسفارات والوزارات ولديهم سيارات حكومية ووصولات بنزين ولبعضهم سكن مجاني، هذه طموحاتهم لذلك يبتزون الحكومة بخطاب ثوري ثم يختفون في مناصبهم الجديدة وبعضهم يتحول إلى لسان الحكومة ويشتغل بوقًا عاليًا.

لا علاقة لهذه النخب بالشارع وبما يدور فيه، لقد عادت إلى احتقاره كما كانت تفعل زمن بن علي، فكل شعب سيدي بو سراح (رعاة أغنام) وجهلة وثورجيين وخونة وإرهابيين وانفصاليين، وقد أطلقت الحكومة أبواقها الإعلامية على ما يجري في الجنوب كما أطلقتها على ما جرى سابقًا في منطقة الفوار وفي جمنة وفي قفصة، وكل كلمة ولها ثمن.

غني عن القول هنا أن شركاء الحكومة هم الحكومة، وأن الانتفاض الاجتماعي يقوم ضد كل مكونات الحكومة أي أحزابها المرتبكة والتي لا تحسن قراءة المشهد وتواصل دس رؤوسها في منوال بن علي الفاشل، معتقدة أن إسقاط بن علي لا يعني إسقاط نمط التفكير والتخطيط الذي حكم به.

نعيش آخر أيام البطريق، وهي مسألة وقت ليس أكثر ولن ينفع فيها "سيدي محرز"، فالذي سيقلب المدينة الآن ليس سيدي بن عروس ولكنه شعب "سيدي بو" الذي لا يحج إلى "حكومة سيدي بو"، مسألة وقت فقط، والوقت ليس لصالح حكومة مستنفذة.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/17560/